ملح الرجال

قصة بقلم عبد الفتاح الحسن

ايام كان العالم صغيرا غامضا .. كنت الصادق ، لان استاذي كان يريد ذلك . والى الان ، وكلما ادرت ظهري للحقيقة ، تذكرت استاذي وتساءلت : « اكنت حقا » ذلك الصادق ؟ ام انها كانت فترات اعيشها صادقا عند كل استنطاق ، وكأني تحت التأثير المغناطيسي ؟ » .

اليوم وقد كبر العالم ، وتكشفت لي دونه استار واستار ..بدأت اتهم نفسي . الصدق ، اليوم ، اصبح مهمة صعبة ، وربما عيبا في هذا العالم المنافق . فلقد اختلفت المقاييس باختلاف الدنيا فاذا الصدق ثقيل خفيف .. بحسب الزمان والمكان والاشخاص . اترى الحياة تعلم الانسان الكذب الى جانب الصدق ؟

الان وبعد ذلك التاريخ البعيد بيني وبين الولودية اكاد اؤمن ان الانسان مفطور على الصدق .. اكاد ، اقول لك ... ولكنها الحياة المتعددة الجوانب ، المتلونة الوجوه ، تلبس الصدق الف ثوب فيلتبس وجهه الحقيقي .. ونبقى نحن امام هذه الالوان ، نقلب عليها ضمائرنا. فاذا الصدق والكذب توأمان متشابهان مختلفان معا . كأنهما في تقاربهما واختلافهما الليل والنهار ينهش اولهما اخرهما ...

هذا الاشكال اعيشه كلما خطرت ببالي قصة قصيرة حصلت لي مع استاذي . وكلما تساءلت الى اية درجة كنت صادقا والى اي مدى كنت كاذبا اقف محتارا امام ذلك العالم الصغير الذي كان يحيا في ضميري . كيف كنت امارس الصدق واجانبه وباية روح ؟ وكيف كنت ارفض الكذب وامارسه ، وباية روح ايضا ؟ اكان ذلك حبا بالصدق ام بالاستاذ ؟ لا شك انه كان ـ اغلب الاحيان ـ حبا بالاستاذ اكثر منه بالصدق ... والا فلماذا كنت اكذب على امي مثلا ؟

اذكر مرة ـ بالمناسبة ـ اني لاحقت احدى دجاجاتنا بالحجارة حتى اتعبتها دون ان اتعب . ثم خفت ان اصيبها فتعلق امي مشنقتي .. فحاولت ان اعدل عن طيشي . واعتبرت الحجر الذي في يدي الاخير. ولكني قضيت به على الدجاجة . فنزلت اليها وطمرتها في التراب ، وعدت الى البيت . ولان امي كانت تعرف « شقاوتي » كان لا بد ان تسألني متهمة متوعدة . وانكرت . وحلفت الايمان ان ليس لي في الامر يد ، ومع ذلك لم اسلم من قرصة عنيفة فركت اذني فركا حتى لقد ظننتها اشتعلت .. وصرخت في وجهي : « كذاب » .

كنت اذن اكذب . وكنت ايضا اصدق . لم يكن الكذب طبيعة فطرت عليها . ولعل الصدق لم يكن كذلك ايضا . كانت الظروف هي التي تحدد موقفي .. كما هي الان . لا تضحك .. فكلنا كذلك . عفوا .. ولكني اكاد ابتعد بك عن تلك الحادثة بيني وبين استاذي .. حيث كنت الصادق الكاذب دون ان يكون لي في ذلك حيلة .

كان ذلك منذ اكثر من عشرين عاما . وكانت الحرب قاربت ان تحط اوزارها . الان استطيع ان ارى ذلك بوضوح . اما ذلك الحين فلقد كنت في شغل شاغل عنها . وان كنت اعيش واقعها ، بكل معانيه دون ان اقلق لشيء . المهم اني كنت الى جانب الجوع احس بالشبع من حين الى حين .

كنا ـ انا واخوتي ـ نقضي النهار جياعا ولا نعرف الشبع الا وقت المساء ، عندما يعود ابي من الشغل ومعه ارغفة سميكة سمراء رطبة ولينة . فكنا نتحلق حوله بعد ان يغتسل فيزيل عنه العرق والاتربة ، ويأخذ كل واحد منا رغيفه ويضعه على فخذه ونروح نتسابق في التهام ما في قصعة الفخار امامنا وامنا تصرخ فينا وتنهرنا واحدا واحدا : « طماع . وحش صغر اللقمة ولك . خلص بقى ، اشبع . تاكل فزارا .. ولك حاجه تشرب ... » وابي يحاول ان يسكتها بكلماته الهادئة : « اتركيهم يا بنت الناس . خلينا نعرف ناكل . » و ... حط الحمام ، طار الحمام . وتمتلىء بطوننا فنقوم ننط ونتهارش ونتعارك حتى يأخذ منا التعب كل مأخذ . ثم نتكوم حول بعضنا البعض كجراء القطط وننام .

وانا في تلك الغيبات الرائعة كنت اسمع صوت امي وهي تحملنا الى الخارج لنبول ثم تنزع عنا ثيابنا ، وتغسل ارجلنا بيديها وتمددنا الى جانب بعضنا في فراش واحد ... كنت اسمعها تقول : « ما هذا؟! ما شاء الله ! لا يهدأون ولا يتعبون طول النهار والسهرة نط ولعب وهراش وضحك (طوشونا) ! » ويهمهم ابي ضحكة حنونا مبهمة ..

كان طعامنا غالبا حبوبا وبرغلا : (مجدره بالعدس . مجدرة باللوبياء . برغل بحمص .. كبة حيلة ..) او بعض الخضار المقددة كالباذنجان اليابس ينقع بالماء قبل يوم او يسلق ثم يلاط بالطحين ويقلى، او اللوبياء نتبلغها ثم نروح نشتغل في تقليع عروقها القاسية من بين اسناننا .

ولكننا لم نكن نحرم بعض المآكل الطيبة كالفاصوليا مع الرز مثلا . ومثل هذه الوليمة لا تكون الا اذا مرضت احدى دجاجاتنا وكادت تموت .. او انها عمرت وانقطعت عن البيض ، ويا ضياع الزؤان تأكله.

اكلة الفاصولياء مع الرز كنا نعرف بها قبل يوم او يومين . وربما قبل اسبوع . فالوالد هو الذي يختار اليوم ـ اذا كانت الدجاجة معمرة ـ كأن يكون يوم راحته من العمل . وطبعا لم نكن نفارق البيت في مثل هذه المناسبة العظيمة . بل نقعد نتخاصم ـ انا واخوتي ـ على الرأس والقانصة .. ونتمسح بامي وهي تسمط الدجاجة بالماء الساخن وتنظفها .. وبجانبنا ايضا قطتنا حموره . فلقد كانت هي الاخرى من افراد العائلة ، ولها حصتها ـ مثلنا تقريبا ـ من الزجر والسباب كلما ضايقنا الوالدة وحشرناها بيننا ونحن نتدافع الى الالتصاق بها . في مثل هذه المناسبة لم نكن نفارق البيت ـ قلت لك ـ الا اذا شاء سوء طالعنا ان نذهب الى المدرسة . وكنا نعود بمثل هبوب الريح لنطمئن الى ان عملية الطبخ تسير سيرها الطبيعي . ولست ادري لماذا كنا نستغني عن الغداء ونوفر بطوننا للحم الدجاج وخبز الشعير. اجل خبز الشعير. الم اقل لك اننا كنا في فترة حرب ؟ ام انك نسيت وصفي لتلك الارغفة السميكة السمراء اللينة ؟

كان ذلك في يوم من تلك الايام . وكانت الشمس قد انقلبت وراء قريتنا ولم يعد لها غير رؤوس السلسلة المطلة علينا تتكبش بها . وكان ابي قد عاد من الحقل ، وسمط هو الاخر رأسه ويديه ورجليه ثم جلس على حصير مفروش امام الباب واتكأ بظهره على الجدار وحضن مؤخرة رأسه بكفيه وراح يدندن بعض ابيات من الميجانا والعتابا ...

عملية الطبخ الرائعة تكاد تنتهي . ونشيش السمن المسكر يعلن بدء « فلفلة الرز » « نصف ساعة ونبدأ . نصف ساعة ... » وكأني قرصت في خاصرتي . فانتفضت : « والاستاذ ؟؟! كان قد اوصاني بالحضور

اليه مساء لاساعده في جمع علامات الامتحان . فلاذهب اليه الان. يجب ان انتهي من كل شيء قبل العشاء حتى اتفرغ له فآكل على مهل ، واتمتع ، فلا يشغل تفكيري شاغل . »

وقمت من فوري . وصاحت بي امي :

ـ « الى اين ؟ »

ـ « الى عند الاستاذ . ساساعده بجمع العلامات واعود بسرعة . »

ـ « طيب . لا تتأخر . »

ـ « لا تتعشوا قبلي »

واسرعت طيرانا . كان استاذي جارا لنا . وصلت في لحظات . مسيت عليه وعلى امه بالخير وانا اخلع حذائي على عتبة الباب . فتأهلا بي كثيرا ودعواني الى العشاء ، فغمغمت كلمة شكر . فسألني الاستاذ .

ـ « هل تعشيت ؟ »

ـ « آ ... »

ـ « كلا » ارأيت ؟ لم اكذب . لم استطع !! قال .

ـ « تعال . اقعد . كل . »

ـ « ولكن ... »

ـ « لا تقل شيئا . اقعد »

وشدني من كتفي بيده الكبيرة فاجلسني ، ووضع امامي كسرة خبز . واسقط في يدي فجلست . كان عشاؤه بطاطا مقلية منذ الظهر ، باردة ، جافة . اخذت قطعة لفقتها بلقمة خبز فتكسرت اطرافها حولها . وضعتها في فمي ورحت امضغها وانا اشعر كأن قلبي قد سقط بين امعائي يتخبط كالعصفور الذبيح . حاولت ان ابلعها جاهدا فكانت تتشبث في جوانب فمي . ومن خلال طنين في اذني وهدير في رأسي سمعت استاذي يقول : « اهلا بنبيه . كل يا حبيبي .. كل ، صحتين . » وربتتني يده الثقيلة على ظهري واستطعت بذلك ان ازدرد اللقمة الخشنة .

وشجعني ان هداني تفكيري الى حل : هي شقفة خبز . ساجهز عليها كيفما كانت الحال . وعندما اخرج ساحاول ان اتقيأها ، استعدادا لوقعتنا الكبرى في البيت . ولكن البطاطا ناشفة جدا . وقوة في اعماقي تحاول ردها .

ـ « كل يا حبيبي .. لا تستح » وتربتني يده الثقيلة على ظهري .

كان منظر « جاط » الفاصولياء وصدر دجاجتنا الصفراء يطفو عليه كالسفينة ، يراود خيالي .. فيبطىء عملية المضغ ويزيد عملية البلع مشقة . اكاد اشتم رائحة طبيخنا بالرغم من المسافة واتجاه الهواء المعاكس .

وتسرب الى نفسي عزاء صغير هو اني اكاد آتي على كسرة الخبز التي امامي . « لا يزال في بطني مكان وسيع للدجاجة والفاصولياء والرز » .

ولكن استاذي يسارع فيضع امامي نصف رغيف اخر . واحس قنوطا فظيعا يأخذ بخناقي .. وتنهار نفسيتي .

ويدفع الاستاذ بالابريق لوالدته لتملأه من الجرة المتكئة على الجدار امام الباب .

ويصل الى اذني صوت امي تناديني فيرتفع وجيب قلبي ، واحس اختناقا في حلقي . لقد بدأوا هناك موقعتنا الكبرى .

وترد عليها ام الاستاذ متباهية : « ما تريدين منه ؟ . ما تريدين ؟ هو يتعشى عندنا » ..

واسمع امي تقول : « يا ولدي » . وتخرج « هؤ » من صدري فيصيح الاستاذ بامه بينما يدقني بيده بين كتفي .

« اسرعي اسرعي يا امي . هاتي الابريق . »

واشرب . ويخرج الماء من انفي . وامر كمي على وجهي . « ترى ماذا قالت امي بعد ذلك . ؟ لعلها قالت : (يا ولدي . يقبرني . عينه بهذه الاكلة . طول النهار ما ذاق شيئا .) لا شك انها تتوجع لي الان . هي تعرف اني احب هذه الاكلة . ولقد وفرت لها بطني فلم انفد . صمت طول النهار لاملأ بطني عند العشاء . كانت رائحة طبيخنا تداعب أنفي طوال بعد الظهر . وكانت معدتي تتجاوب معها بنداء عجيب يكاد يسحب قلبي . ثم ماذا كانت النتيجة ؟ بطاطا مقلية بالزيت يستعمل لنفس الغرض ربما للمرة الرابعة ! بطاطا جافة أجدبت حلقي فنشف ريقي . املحها لاحس لها طعما فيلتهب صدري وآخذ الابريق لاطفىء حري فيمتلىء بطني . واخوتي يكبون بايديهم على الرز والفاصولياء وامي تفسخ اللحم الشهي بيديها وتوزعه على اطراف الجاط الكبير باتجاه كل فرد . اخي عبود يمضغ قطعة ويمسك بيدة اخرى ويلاحق يدي امي بعينين اشعبيتين ليرى كيف توزع الحصص . وانا هنا املح قطعة البطاطا لاحس لها طعما . وكلما شارفت على الخلاص من كسرة خبز دفعت يد الاستاذ الي اخرى . وصحن البطاطا لا ينفد . ويد الاستاذ تربتني . واوامره لا ترد . يقول كل فآكل . تماما كما يقول في المدرسة اقرأ فاقرأ . لا استطيع ان ارفض . واحس امتلاء يصحبه ضيق لكني لا استطيع ان اقوم عن لقمة تفضل عني . فمن يأكلها من بعدي ؟ استحييت ان اشبع . عفوا .. استحييت أن اعلن عن شبعي وامامي لقمة الخبز . هل تصدق اني كنت آكل وانا اكاد ابكي من الشبع ؟ ما العمل يا ربي ؟! اكلة الفاصولياء والدجاج انتهيت منها . لم تعد تخطر على بالي ، والشبع يكاد يشقني . ولكن ... كيف الخلاص . »

وتفتق ذهني عن حيلة خيل الي اني بها استطيع ان اتخلص من الخبزة التي امامي . رميت نظري يمينا وشمالا ، على الاستاذ وعلى امه ثم ، وببطء وتؤدة تسللت اصابعي الى زناري الجلدي فحللته واطلقت زرا من عقاله فانطلق بصوت مسموع ومخجل . وبدرت اشارة من الاستاذ الى امه فقامت واحضرت قليلا من الزيتون .

ـ « كل زيتونا » ...

ومددت يدي الى صحن الزيتون وكأني في قلبي اشيع ميتا عزيزا علي . « زيتون ؟ لماذا ؟ انا شبعان . لماذا لا تلاحظ يا استاذي . بطاطا وزيتون . وفي بيتنا قطة تأكل الفاصولياء وتعرق عظم الدجاج ؟! انا شبعان . شبعان الى انفي . شبعان والله ... »

ومع ذلك كانت يدي تمتد الى الخبزة التي امامي والى صحن الزيتون .

وبدأت اتنفس بصعوبة ملحوظة .

ـ « كل . صحتان يا نبيه . »

وهالني ان رأيت يد الاستاذ تمتد لتضع امامي وللمرة الثالثة نصف رغيف .

الى هنا وكان لا بد ان اتصرف ، فاضع حدا لكل شيء . لم افكر هكذا . بل ان تصرفي كان بطبيعته قد وضع حدا لكل شيء . التصقت ذقني بصدري وتركزت عيناي على قطعة الخبز فراحت هذه تكبر وتمتد وتتماوج حتى غطت كل ما حولي . وفيما كنت افتح فمي واغلقه ببطء ويأس غريبين كانت دموعي تتساقط امامي على قطعة الخبز اليابسة .

والذي يسمع صوت الزر يفك من عروته لا بد انه سمع صوت دموعي النازلة كالوكف على الخبز . فاذا به يصيح :

ـ « ما بك يا نبيه ؟ ما في الامر يا حبيبي . » وطوى سبابته تحت ذقني ورفع وجهي اليه فاغمضت عيني المبللتين وانا اشرق بانفي ، لا اجرؤ على النظر اليه .

ـ « ما بك ؟ احك . »

فقلت والبكاء يقطع صوتي :

ـ « شبعت » .

ـ « شبعت ؟ . طيب ! خلاص . لا تأكل بقى . »

وتزاحم ضغط البكاء الى حلقي فخرج من فمي وانفي . وقمت انوء بما في بطني .. ولم انس ان آخذ حذائي بيدي .. ورحت امشي صوب بيتنا والبكاء ينتق بدني .

بيروت

عبد الفتاح الحسن